حُسن المحاضرة للسيوطى

بقلم

الأستاذ إبراهيم الإبيارى

١ — تمهيد

يطلق المؤرخون على تلك الفترة التى بدأت بسقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) وانتهت بدخول العثمانيين مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (٩٢٣ هـ) : العصر المغولى . وذلك لسيادة المغول الرقعة العربية من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً ، ما يجاوز القرنين ونصف القرن مما يقرب من ستة عشر عاماً .

هذا إذا استثنينا مصر والشام اللتين عاشتا تلك الحقبة فى ظل المماليك ، وكذلك اليمن والمغرب اللتين لم يبلغهما الغزو المغولى ، ولقد عاشت اليمن عربية كما عاشت المغرب عربية بربرية :

ويشاء القدر أن يمتحن العرب بمحنة أخرى أواخر هذا العصر . ففى سنة سبع وتسعين وثمانمائة (٨٩٧ هـ) خرج المسلمون عن أسبانيا وانقطعت على العرب السبيل إلى وصل تقدمهم .

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ابن اياس محمد بن أحمد (٩٣٠ هـ) .
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الشوكانى محمد بن على (١٢٥٠ هـ) .
(٣) الحقيقة والمجاز (رحلة) ، عبد الغنى النابلسى (القرن الثانى عشر) .
(٤) الخطط التوفيقية ، على مبارك (١٣١١ هـ) .
(٥) ذيل لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية ، الشعرانى عبد الوهاب بن أحمد (٩٧٣ هـ) .
(٦) روضات الجنات ، الموسوى محمد باقر (القرن الثانى عشر) .
(٧) العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، الفاسى أحمد بن محمد (القرن الثالث عشر) .
(٨) السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر . الشبلى محمد بن أبى بكر (١٠٣٨ هـ) .
(٩) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، السخاوى محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ) .
(١٠) طبقات الشافعية ، الأسدى .
(١١) عقود الجواهر فى تراجم من لهم خمسون مصنفاً فمائة فأكثر ، جميل العظم (١٣٥٢ هـ) .
(١٢) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . أبو الحسنات الهندى (القرن الثالث عشر) .
(١٣) قبر السيوطى ؛ أحمد تيمور .
(١٤) كشف الظنون ، حاجى خليفه .
(١٥) الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ، الغزى محمد بن محمد (١٠٦١ هـ) .
(١٦) النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، العيدروس عبد القادر الهندى (١٠٣٨ هـ) .

وكما بطش المغول بالمسلمين فى الشرق بطش الأسبان بالمسلمين فى الغرب ، فلقد خرب المغول وحرقوا ونهبوا وقتلوا ، وكانت الوصمة الفاضحة لهم إحراقهم المكتبات واتيانهم على الكتب ، فلقد أحرق جنكيز خان من الكتب فى بخارى ونيسابور وغيرهما من المدن العامرة بالمكتبات ما لا يحصى .

والذى فعله المغول هنا فى الشرق فعله الأسبان هناك فى الغرب فلقد نكلوا وشردوا وعذبوا وقتلوا ، وكانت الوصمة الفاضحة لهم اتيانهم على الكتب إحراقاً وإبادة ، وآخر ما كان لهم فى ذلك ما فعله الكردينال زيمنسى آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافى من نحو من ثمانين ألف مجلد .

وهذا العسف الذى لحق المسلمين فى الشرق المغولى والغرب الأسبانى دفع جموعاً من الشرق وجموعاً من الغرب إلى الهجرة صوب مصر والشام وجنوب المغرب حيث لا مغول ولا أسبان .

وهكذا ظهرت مدن فى هذه الأقاليم الثلاثة أعنى مصر والشام والمغرب مكان مدن أولى فى الشرق مثل بغداد وبخارى ونيسابور والرى . ومدن أولى كانت فى الغرب مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة ، وإذا التاريخ يسجل مكان هذه المدن الأولى مدناً جديدة مثل القاهرة والإسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحماه وحلب وتونس ومراكش ، وإذا هذه المدن يخرج منها علماء لما كان يخرج من المدن التى سبقتها . وإذا التاريخ يدون للقاهرى والإسكندرى والأسيوطى والفيومى والدمشقى والحمصى والحلبى والتونسى والمراكشى كما كان يدون من قبل للبغدادى والكوفى والنيسابورى .

وعلى أية حال فلقد أصبحت القاهرة خلال هذا العصر المغولى عاصمة العالم العربى وغدت ملجأ الأدباء والعلماء يفدون إليها من المشرق ومن المغرب .

وهذا التاريخ الذى كادت تمحى صفحاته بأيدى المغول فى الشرق والأسبان فى الغرب خلق كثرة من المؤرخين شغلوا بتدوين ما كادت تذهب به أيدى المغيرين ، نذكر منهم ابن خلكان (٦٨١ ﻫ) صاحب وفيات الأعيان ، وابن أبى أصيبعة (٦٦٨ ﻫ) ، صاحب طبقات الأطباء ، وصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ ﻫ) صاحب الوافى بالوفيات ، وأبى الفدا (٧٣٢ ﻫ) صاحب المختصر فى أخبار البشر ، والذهبى (٧٤٨ ﻫ) صاحب تاريخ الإسلام ، وابن شاكر الكتبى (٧٥٤ﻫ) صاحب كتاب فوات الوفيات ، وابن حجر العسقلانى (٨٥٢ ﻫ) صاحب الدرر الكامنة ، والمقريزى (٨٤٥ ﻫ) صاحب الخطط ، وغيرهم كثير .

وكما خلقت المحنة هذا الوعى التاريخى الذى شغل أصحابه بتدوين ما كادت الأحداث تذهب به خلقت وعياً آخر يتصل بالتاريخ ، ونعنى به النقد التاريخى . ويكاد يكون ابن الطقطقى (٧٠٢ﻫ) بكتابه « الفخرى » على رأس تلك المدرسة التى بدأت به ، وثنت بابن خلدون (٨٠٨ ﻫ) فى مقدمته لتاريخه التى فلسف فيها الأحداث التاريخية .

وثمة ظاهرة ثالثة لتلك المحنة تتجلى فى لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى حتى أصبح هذا العصر المغولى يسمى بحق : عصر الموسوعات وعصر المجاميع ، وكما خافوا على التاريخ خافوا على اللغة فاستكثروا من المعاجم . وليست هذه الظاهرة بغريبة على عصر أحس الناس فيه انطواء صفحات وانمحاء معالم وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها .

ومن أصحاب الموسوعات والمجاميع والمعاجم فى هذا العصر ابن منظور (٧١١ ﻫ) صاحب لسان العرب ، والوطواط (٧١٨ ﻫ) صاحب مباهج الفكر ، والنويرى (٧٣٢ ﻫ) صاحب نهاية الأرب ، وابن فضل الله العمرى (٧٤٨ ﻫ) صاحب مسالك الأبصار ،

والفيروزأبادى (٨١٧ هـ) صاحب القاموس ، والقلقشندى (٨٢١ هـ) صاحب صبح الأعشى .

* * *

٢ — جلال الدين السيوطى

فى ظل هذا العصر المغولى الذى خصته المحنة بتلك اللهفة الحافزة للجمع على صورتيه الخاصة والعامة ، وبتلك الغيرة الحافزة له على تعمق الأحداث وفلسفتها ، نشأ رجلنا جلال الدين السيوطى وعاش ومات .

ولقد أغنانا صاحبنا عن تتبع أخباره التى تتصل بمولده ونشأته وجمعها من مظانها بما كتبه هو عن نفسه فى كتابه «حسن المحاضرة»، وكأنه نظر فى ذلك إلى ما فعله من قبله ، عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى فى ذيله على تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء ، وابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ، والحافظ تقى الدين الفاسى فى كتابه العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين بمن ولى مصر فى الإسلام ، وابن حجر العسقلانى فى كتابه الأعلام ، وأبو شامة فى كتابه الروضتين . وإليك ما قاله السيوطى عن نفسه :

عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى .

أما جدى الأعلى « همام الدين » فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريق — وسيأتى ذكره فى قسم الصوفية — ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ، منهم من ولى الحكم ببلده ، ومنهم من ولى الحسبة بها ، ومنهم من كان تاجراً فى صحبة الأمير شيخون ، وبنى مدرسة بأسيوط ووقف عليها أوقافاً ، ومنهم من كان متمولا . ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والدى[1] . وسيأتى ذكره فى قسم الفقهاء الشافعية .

وأما نسبتنا بالخضيرى ، فلا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة ، إلا الخضيرية محلة ببغداد . وقد حدثنى من أثق به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى يذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق ، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة .

وكان مولدى[2] بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وحملت فى حياة أبى إلى الشيخ محمد المجذوب . رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى ، فبرك على .

ونشأت يتيما فحفظت القرآن ولى دون ثمان سنين . ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك ، وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى[3] ، الذى كان يقال إنه بلغ السن العالية وجاوز المائة بكثير ، والله أعلم بذلك . وقرأت عليه فى شرحه على المجموع .

وأجزت بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين . وقد ألفت فى هذه السنة ، فكان أول شىء ألفته : شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقينى ، فكتب عليه تقريظاً . ولازمته فى الفقه إلى أن مات ، فلازمت ولده فقرأت عليه من أول التدريب لوالده إلى الوكالة ، وسمعت عليه من أول الحاوى الصغير إلى العدد ، ومن أول المنهاج إلى الزكاة ، ومن أول التنبيه إلى قريب من باب الزكاة ، وقطعة من الروضة من باب القضاء ، وقطعة

---

(١) ولد بأسيوط . وتولى قضاءها قبل أن يرحل إلى القاهرة ثم ولى الفقه بالجامع الشيخونى وخطب بالجامع الطولونى . توفى سنة ٨٥٥ هـ .

(٢) كان مولده بالقاهرة .

(٣) نسبة إلى : شارمساح : قرية قريبة من دمياط .

من تكملة شرح المنهاج للزركشي ، ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها . وأجازني بالتدريس والافتاء من سنة ست وسبعين وحضر تصديري .

فلما توفى سنة ثمان وسبعين لزمت شيخ الإسلام شرف الدين المناوى فقرأت عليه قطعة من المنهاج ، وسمعته عليه في التقسيم ، إلا مجالس فاتتني . وسمعت دروساً من شرح البهجة ومن حاشية عليها ومن تفسير البيضاوى .

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى فواظبته أربع سنين ، وكتب لى تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية تأليفى ، وشهد لى غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع إلى قولى مجرداً في حديث ، فانه أورد في حاشيته على الشفاء حديث ابن أبي الجمراء في الاسراء ، وعزاه إلى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إيراده بسنده ، فكشفت ابن ماجة في مظنته فلم أجده فمررت على الكتاب كله فلم أجده ، فاتهمت نظرى ، فمررت مرة ثانية فلم أجده . فعدت ثالثة فلم أجده ، ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت إلى الشيخ وأخبرته ، فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسخته وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجة وألحق ابن قانع في الحاشية ، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي واحتقارى في نفسى ، فقلت : ألا تصبرون لعلكم تراجعون . فقال : لا ، إنما قلدت في قولى ابن ماجة البرهان الحلبي .

ولم أنفك عن الشيخ إلى أن مات ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محيى الدين الكافيجى أربع عشرة سنة ، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعانى وغير ذلك ، وكتب لى إجازة عظيمة .

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفى دروساً عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعضد.

وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه .

وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها : أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى . وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وعقدت املاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين . ورزقت التبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والتقول التى أطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم . وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ، ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض ، ودونها القراآت ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على وأبعده من ذهنى ، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله .

وقد كملت عندى الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً أو أى شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر .

وقد أزف الرحيل وبدا الشيب وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى ولا بقوتى ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وقد كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئاً فى علم المنطق ثم ألقى الله كراهته فى قلبى . وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم .

وأما مشايخى فى الرواية سماعاً وإجازة فكثيرون أوردتهم فى المعجم الذى جمعتهم فيه ، وعدتهم نحو مائة وخمسين ، ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالى بما هو أهم ، وهو قراءة الدراية . وهذه أسماء مصنفاتى لتستفاد:

ثم أخذ السيوطى يصنف كتبه فنوناً ، ذاكراً مع كل فن ما معه من كتب . وبدأ بفن التفسير والقراآت

ا — فأحصى فى هذا الفن أربعة وعشرين كتاباً نذكر منها :

١ — الإتقان فى علوم القرآن . طبع .

٢ — الدر المنثور فى التفسير المأثور . طبع .

٣ — مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن . طبع .

٤ — شرح الشاطبية (فى القراآت) . طبع .

ب — وثنى بفن الحديث وما يتصل به وأحصى فى هذا الفن تسعين كتاباً ، نذكر منها :

٥ — إسعاف المبطأ برجال الموطأ . طبع .

٦ — الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج . طبع .

٧ — تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى . طبع

حـ — وثلث بفن الفقه وما يتصل به ، وأحصى فى هذا الفن اثنين وعشرين كتاباً ، نذكر منها :

٨ — مختصر الروضة — أعنى : الروضة فى الفروع — ويسمى : الغنية . ذكره حاجى خليفة . وقال : لم يتم .

٩ — نظم جمع الجوامع . ذكره حاجى خليفة عند الكلام على جمع الجوامع فى أصول الفقه للسبكى . وقال : ونظمه السيوطى وسماه : الكون الساطع . وشرح هذا المنظوم له أيضاً .

١٠ — تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع . ذكره حاجى خليفة .

د — ثم أورد الكتب المفردة فى مسائل مخصوصة وأحصى فى هذا الباب ثلاثة وأربعين كتاباً نذكر منها :

١١ — ميزان المعدلة فى شأن البسملة . ذكره حاجى خليفة .

١٢ — المصابيح فى صلاة التراويح . ذكره حاجى خليفة .

١٣ — بلغة المحتاج فى مناسك الحاج . ذكره حاجى خليفة .

هـ — وبعد هذا الفن الرابع ذكر الفن الخامس وهو فن العربية وما يتصل به ، وأحصى فى هذا الفن أربعين كتاباً نذكر منها :

١٤ — شرح شواهد المغنى . مطبوع .

١٥ — جمع الجوامع . طبع .

١٦ — جمع الهوامع ، وهو شرح لجمع الجوامع . طبع .

و — ثم الفن السادس ، وهو فن الأصول والبيان والتصوف ، وقد أحصى فيه اثنين وعشرين كتاباً ، نذكر منها :

١٧ — عقود الجمان فى المعانى والبيان . طبع .

١٨ — شرح الكوكب الوقاد فى الاعتقاد، للسخاوى . وقد ذكره حاجى خليفة .

١٩ — الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال . وقد ذكره حاجى خليفة .

ز — ثم الفن السابع وهو فن التاريخ والأدب ، وهو خاتم الفنون، وقد أحصى فيه ستة وأربعين كتاباً، نذكر منها :

٢٠ — طبقات الحفاظ . مطبوع .

٢١ — بغية الوعاة . مطبوع .

٢٢ — طبقات المفسرين . مطبوع .

٢٣ — ديوان شعر . وقد ذكره حاجى خليفة .

٢٤ — شرح بانت سعاد . وقد ذكره حاجى خليفه .

غير أن عدد الكتب التى ذكرها السيوطى لا يبلغ الثلثمائة كما ذكر . وليس بعيداً أن يكون فى الكتاب سقط ، أعنى كتاب حسن المحاضرة .

وقد عد له بروكلمان نحواً من خمسة عشر وأربعمائة مؤلف .

كما أحصى له حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون نحواً من ستة وسبعين وخمسمائة كتاب . ومن قبل هذين أحصى له ابن اياس فى تاريخه والشعرانى فى ذيل طبقاته . فيقول ابن اياس : بلغت مؤلفاته ستمائة مؤلف ، ويقول الشعرانى : له من المؤلفات أربعمائة وستون مؤلف مذكورة فى فهرس كتبه .

والشعرانى مؤرخ معاصر عاصر السيوطى وحضر وفاته فى القاهرة والصلاة عليه . ونحن نعرف أن السيوطى اعتزل الناس فى أواخر أيامه وترك الافتاء والتدريس وسكن فى جزيرةالروضة (المنيل) متجرداً للعبادة والاشتغال بالتأليف وألف فى ذلك كتابه « التنفيس فى الاعتذار عن الافتاء والتدريس » ، وبقى على ذلك فى الروضة لم يتحول عنها إلى أن مات . وعلى هذا فليس بعيداً أن تكون له هذه المؤلفات التى ذكرها الشعرانى ، وأن ما زاد منها على ما ذكره هو فى كتاب حسن المحاضرة يكون قد تم وضعه بعد تأليفه كتابه هذا وحين خلا إلى نفسه فى الروضة .

وقد أحصى له يوسف سركيس فى كتابه معجم المطبوعات العربية اثنين وتسعين كتاباً تم طبعها لعهده (١٣٣٩ هـ ــ ١٩١٩ م) .

وإذا عرفنا أن من بين هذه المؤلفات المذكورة للسيوطى رسائل صغيرة يقول عنها السخاوى : رأيت ما هو فى ورقة وأما ما هو فوق الكراسة فكثير .

وبين أيدينا مجموع له مطبوع اسمه الحاوى للفتاوى يضم فنوناً مختلفة فى الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والاعراب وغيرها ، يقع هذا كله فى نحو خمسين وسبعمائة صفحة (٧٥٠) ويضم نحواً من ثمانية وسبعين كتاباً . أكثرها من بين الكتب التى ذكرها السيوطى .

إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعون التى عكف فيها السيوطى على التأليف لهذا العدد الكبير من المؤلفات ــ فهو قد بدأ التأليف ، كما يقول فى ترجمته لنفسه ــ سنة ست وستين وثمانمائة ، وكانت وفاته سنة ٩١١ هـ ــ ولم نستكثرها عليه ، ووقفنا موقف الشك مما جرحه به معاصره ومنافسه السخاوى ، حين يقول فى كتابه « الضوء اللامع » عن السيوطى : واختلس حين كان يتردد إلى مما عملته كثيراً ، كالخصال الموجهة للظلال ، والأسماء النبوية ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وموت الأنبياء ، وما لا أحصره . بل أخذ من كتب المكتبة المحمودية[1] وغيرها كثيراً من التصانيف التى لا عهد لكثير من العصريين بها فغير منها يسيراً وقدم وأخر ونسبها لنفسه وهول فى مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفى بحقه .

والذى ذكره السخاوى عن السيوطى صرح به السيوطى عن نفسه ، وذلك عن الكتب التى كانت لغيره واختصرها هو أو يسرها . وما نظن الذى فعله السيوطى يعاب عليه كما لم يعب على كثير ممن سبقوه وفعلوا فعله ، ونحن نعلم كم نال السخاوى من غير السيوطى وكم شهر بمؤلفين كما شهر بالسيوطى ، منهم ابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وأبو البقاء البدرى صاحب سحر العيون .

ولعل عبارة ابن اياس عن السخاوى تغنينا عن التعريف بمنهجه ، فلقد قال ابن اياس عنه : إنه ألف كتاباً فيه كثير من المساوئ فى الناس .

---

(١) أنشأ هذه المكتبة الأمير جمال الدين محمود بن على وعنها يقول المقريزى : لا يعرف بديار مصر والشام مثلها .

والسيوطى نفسه لم يسكت عن السخاوى فقد وضع فيه رسالة أسماها : مقامة الكاوى على تاريخ السخاوى . يقول فى أولها : ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، فلا يذكر إلا المساوى وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعراض هى الأغراض ، وجعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه .

والغريب أن الذى اتهم به السخاوى السيوطى من انتحال لبعض كتبه اتهم به السيوطى عالماً معاصراً له هو القسطلانى ، وزعم أنه كان يسرق من كتبه ويقتطع منها ، وقد جمع بينهما — أعنى بين السيوطى وبين القسطلانى — شيخ الإسلام لذلك العهد زكريا الأنصارى واستمع لهما .

وما يدرينا لعل ذاك العصر أظل كثيراً من أمثال ما جرى بين السخاوى والسيوطى ، وما جرى بين السيوطى والقسطلانى ، وأن هذا كان مظهره السائد .

ولقد قرأت للرجل فى ترجمته لنفسه شغفه بالتحصيل وأمله فى أن يبلغ مرتبة البارزين ثم انقطاعه للتدريس والفتيا ، وأحب أن أزيدك أنه كان إلى هذا عفيفاً كريماً صالحاً تقيا لا يمد يده لسلطان ولا يقف بباب وزير أو أمير .

ويروى الذين ترجموا له أن السلطان الغورى أرسل إليه مرة خصيا وألفى دينار ، فرد الدنانير وأخذ الخصى ثم أعتقه وجعله خادماً فى الحجرة النبوية ، وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا قط بهدية فان الله أغنانا عن مثل ذلك .

وحين عاش الرجل عظيما يعف عما فى يد الأمراء والوزراء ، سعى إليه الأمراء والوزراء وعز فى أنفسهم حين عز فى نفسه .

وحسبك عنه أنه لما مات سنة إحدى وعشرة وتسعمائة (٩١١ هـ) لم يتعرض أحد لتركته ، مع أن الزمن كان زمن جور . وإليك ما قاله جمال الدين الشبلى فى كتابه « السنى الباهر بتكميل النور السافر » : « ودفن فى قبر والده — يعنى والد السيوطى — وعمل له الأمير الكبير قرقماش صندوقا من خشب وستراً أسود خليفتى — خليفى — مطرز بالأبيض بآية الكرسى . وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة والتبرك » .

ثم يقول : « ولما مات لم يتعرض أحد فى تركته مع أن الزمن كان زمن جور ، وقال الغورى : لم يقبل الشيخ منا شيئاً فى حياته ، فلا نتعرض لتركته » .

ويقول الشعرانى فى ذيل طبقاته : ولما جئت إلى مصر قبيل موته اجتمعت به مرة واحدة تبركاً ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته » إلى أن يقول : مات رضى الله عنه فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، ثم يقول : وكان له مشهد عظيم .

ويقول الغزى فى الكواكب السائرة : وكان له مشهد عظيم وصلى عليه غائبة بدمشق بالجامع الأموى يوم الجمعة ثامن رجب من سنة إحدى عشرة وتسعمائة .

وقد حقق العلامة المغفور له أحمد تيمور مكان قبره فى مقال نشره بمجلة الزهراء سنة ١٣٤٦ هـ ثم خرج هذا المقال فى كتيب صغير بعنوان « قبر الإمام السيوطى ، وتحقيق موضعه » .

وقد انتهى المحقق إلى أن قبر السيوطى فى المكان المعروف عند العامة ببوابة السيدة عائشة .

ويقول أحمد تيمور : وقبره مشهور عند أهل هذه الناحية يعرفه الخلف عن السلف من زمن وفاته إلى اليوم لا يشك فى ذلك شاك ، ويرجع الفضل فى حفظه من الدثور كل هذه المدة إلى حسن اعتقاد الناس فيه وقصدهم اياه بالزيارة كل حين وكانوا يقيمون له حضرة كل أسبوع ، ثم أبطلوها واقتصروا على المولد الذى اعتادوا عمله كل سنة فى نصف شعبان .

وقد زار هذا القبر النابلسى فى أوائل القرن الثانى عشر ، ذكر ذلك فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز فقال : ثم ذهبنا إلى مزار الشيخ الإمام والعالم الهمام جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى صاحب التصانيف العديدة والكتب المعتبرة المفيدة وهو مدفون فى مكان مخصوص به وحوله قبور أخرى وعلى قبره ثوب أخضر وقبة مبنية فى بيت لطيف ومحل شريف فيه الجلالة والهيبة والعرفان ولوامع الأنوار والأسرار .

كما زاره من بعد النابلسى فى أوائل القرن الثالث عشر الفاسى وذكر ذلك فى رحلته إلى الحجاز .

وفى مدينة أسيوط مسجد يعرف بجامع سيدى جلال الدين السيوطى وبه ضريح تزعم العامة جهلا أنه ضريح السيوطى ومن عادتهم إقامة مولد له كل سنة ليلة السابع والعشرين من شعبان . وهذا المسجد يعرف عند أهل العلم باسم مسجد الحمصى .

ولم يعرف سبب نسبة هذا المسجد إلى السيوطى . ويقول أحمد تيمور : والذى يسبق إلى الظن أنه المدرسة التى ذكرها — أى السيوطى — فى حسن المحاضرة فى ترجمته لنفسه وقال : إن أحد أجداده بناها بأسيوط ووقف عليها أوقافاً . وإذا صح ذلك فلا يبعد أن يكون الضريح الذى به هو ضريح بانيه أو أحد ذويه ، ثم بمرور الزمن وغموض الحقيقة نسب المسجد والضريح إلى السيوطى نفسه لشهرته . وعلى هذا فنسبته إلى الحمصى عند الخاصة ربما كانت لتجديده له أو توليه الإمامة والتدريس فيه .

ويقول تيمور : وثمة فئة فى أسيوط تزعم أنها من ذرية السيوطى [1] ، ويعرف كل فرد منها بالجلالى . ولكن المحققين أجمعوا على أن السيوطى لم يعقب ، فلعل نسبتهم إليه كانت عن علاقة لاتصالهم بهذا الضريح .

٣ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

ولقد علمت العصر الذى أظل السيوطى وروحه ، وأنه كان عصر موسوعات ، أى عصر عموم لا خصوص ، وإن نظرة فى كتب السيوطى التى مرت بك تقفك على أن الرجل مثل عصره التمثيل كله ، وهو وإن لم يجمع جهده فى كتاب موسوعى واحد ، كما فعل النويرى والعمرى فقد ترك جهداً موزعاً فى كتب لو انضافت مثلت موسوعة تحكى موسوعة النويرى وموسوعة العمرى .

وثمة رجال فى هذا العصر جهدوا جهد السيوطى وعدوا من أصحاب الموسوعات وإن لم يكونوا منها بمعناها الدقيق ، مثل الطوسى (٦٧٢ هـ) والتفتازانى (٧٩١ هـ) والجرجانى (٨١٦ هـ (والفنارى) ٨٢٤ هـ)

وهذا الكتاب — أعنى حسن المحاضرة — هو إلى لحته التاريخية عمل موسوعى ، ولو أنه انضافت إليه جهود من تلك الجهود التى فرقها المؤلف لاستقام موسوعة كبيرة .

غير أنه على الرغم من هذا مرجع للكثير فى الكثير من الأمور التى تتصل بهذا الموضوع الخاص ، أعنى مصر ، فهو يضم أخبار مصر منذ القدم . يقدم بذكر المواضع التى وقع فيها ذكر مصر ، وذكر الأحاديث التى ورد فيها ذكرها ، ثم يعقب بفصلين أولهما فى آثار موقوفة والآخر فى آثار أوردها المؤلفون فى أخبار مصر

ثم يصف إقليم مصر ويذكر من نزلها ممن أولاد آدم عليه السلام ، ثم من ملك مصر قبل الطوفان وبعده ، ثم من دخلها من الأنبياء ومن كان بها من الصديقين والسحرة الذين آمنوا بموسى ، ثم من كان بها من الحكماء ، وقتل عوج ، وعجائبها القديمة ، ويخص الأهرام بحديث طويل ، ثم يذكر بناء الإسكندرية ومنارتها وعجائبها .

(١) سيوط وأسيوط : اسمان لمكان بعينه فى صعيد مصر معروف .

ثم يمهد لدخول العرب مصر بذكر دخول عمرو ابن العاص إليها فى الجاهلية وكتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ، وبعث أبى بكر إلى المقوقس خاطباً ، ثم يذكر فتح مصر فى خلافة عمر ، ويعرض للخلاف بين العلماء : هل فتحت صلحاً أو عنوة ، وبناء المسجد الجامع والدور والحمامات واختطاط الجيزة ، ويذكر المقطم وجبل يشكر ، ثم فتوح الفيوم وبرقة والنوبة ، ثم يتكلم عن الجزية والمكس على أهل الذمة .

ويمضى يذكر القطائع ومرتع الجند ، وحفر خليج أمير المؤمنين ، وانتفاض عهد الإسكندرية . وبعد هذا يفرد الحديث لمن دخل مصر من الصحابة كما أوردهم فى كتابه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » .

ثم يذكر من كان بمصر من التابعين ، ثم مشاهيرهم الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة ، ثم من كان بها من الأئمة المجتهدين ، فى تراجم مستوفية . ولا ينسى أن يترجم لنفسه تلك الترجمة التى سقناها لك ، ثم يذكر من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ومن لم يبلغ درجة الحفظ ، ثم من كان بها من فقهاء الشافعية من المالكية ثم الحنفية والحنابلة .

ثم يذكر من كان بمصر من أئمة القراءات والصلحاء والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة وأرباب المقولات وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء والمنجمين والوعاظ والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء .

وإلى هنا ينتهى من الجزء الأول ويبدأ فى الجزء الثانى من الكتاب .

فيذكر أمراء مصر منذ أن فتحت إلى أن ملكها بنو عبيد ، ثم أمراءها من بنى عبيد ، ثم أمراءها منذ أن ملكها بنو أيوب إلى أن اتخذها العباسيون داراً للخلافة .

ثم من قام بها من الخلفاء العباسيين .

ثم يعرض لأمور اصطلاحية ، فيذكر الفرق بين السلطان والملك وأرباب الوظائف .

ثم يعود فيذكر قضاة مصر مستأنساً بابن عبد الحكم يسوقهم من غير تفرقة حين لم تكن ثمة مذاهب ، ثم يذكر قضاة الحنفية ثم المالكية ثم الحنابلة .

ثم يذكر وزراء مصر ، ثم كتاب السر ، ثم يتحدث عن جوامع مصر بادئاً بجامع عمرو ثم جامع ابن طولون ثم الجامع الأزهر ثم جامع الحاكم :

ثم يذكر أمهات المدارس والخانقاه ، بادئاً بالمدرسة الصلاحية ثم خانقاه سعيد السلحدار ثم المدرسة الكاملية ثم المدرسة الصالحية ثم الظاهرية القديمة ثم المنصورية ثم الناصرية ثم الخانقاه البيبرسية ثم خانقاه قوسون وخانقاه شيخو ثم مدرسة صرغتمش والسلطان حسن والظاهرية والمؤيدية .

وبعد هذا يذكر الحوادث الغريبة الكائنة بمصر . وبعدها يذكر الطريق إلى مكة ثم حمام الرسائل :

ثم يذكر أموراً متفرقة فى الزى والكتابة على التقاليد والمعاملة ولطائف مصر ، ثم يتحدث عن النيل وجزيرة الروضة والمقابر والخليج وبركة الجيش .

ثم يختم الكتاب بذكر ما فى مصر من الرياحين والأزهار والفواكه وما جاء فيها من أشعار .

فأنت بهذا بين يدى موسوعة عن مصر محيطة ، لولا جهد السيوطى فى جمعها من مظانها المتفرقة ما اجتمعت ولظلت متفرقة .

وحسبك أن تستمع للسيوطى وهو يقدم جهده فى مقدمته لموسوعته هذه والكتب التى رجع إليها ، يقول : وقد طالعت على هذا الكتاب كتباً شتى منها :

فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر للكندى ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعى ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وإيقاظ المتغفل واتعاظ

المتأمل ، لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيدى ، والخطط للمقريزى ، والمسالك لابن فضل الله العمرى ، ومختصره للشيخ تقى الدين الكرمانى ، ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبدالله الأنصارى. وعنوان السير لمحمد بن عبد الملك الهمدانى ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لمحمد بن الربيع الجيزى ، والتجريد فى أسماء الصحابة للذهبى ، والإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر ، ورجال الكتب العشرة للحسينى ، وطبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات الشعراء له ، وطبقات الشافعية للسبكى وللاسنوى ، وطبقات المالكية لابن فرحون ، وطبقات الحنفية لابن دقماق ، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزى ، وتاريخ الإسلام للذهبى ، والعبر له ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وإنباه الغمر بأبناء العمر لابن حجر ، والطالع السعيد فى أخبار الصعيد للكمال الادفوى ، وسجع الهديل فى أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشى ، والكروان لابن أبى حجلة ، وثمار الأوراق لابن حجة .

فهذه نحو من ثلاثين كتاباً خصها السيوطى بالذكر ، وما أهمله وجاءت الإشارة إليه فى ثنايا الكتاب يكاد يبلغ هذا القدر الذى ذكره .

كل هذه المراجع كانت منها مادة هذا الكتاب ، أعنى : حسن المحاضرة .

ولقد كان السيوطى أميناً حين نقل ، كان يعزو القول إلى صاحبه فى الكثير ويسكت عنه فى القليل الذى شارك فيه أكثر من مرجع .

فهو حين يتكلم على من دخل مصر من الصحابة يقول : قد ألف الإمام محمد بن الربيع الجيزى فى ذلك كتاباً فى مجلد ذكر فيه مائة ونيفاً وأربعين صحابيا ، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر ، وقد ألفت فى ذلك تأليفاً لطيفاً استوعبت فيه ما ذكره وزدت عليه ما فاته من تاريخ ابن عبد الحكم وتاريخ ابن يونس وطبقات ابن سعد وتجريد الذهبى وغيرها ، فزاد فى العدة على ثلاثمائة .

ولكى يكون أميناً يثبت ما لسابقه من غير أن يضيره ذلك فيقول :

ولقد أردت أن ألخص كتاب محمد بن الربيع الجيزى وأضم إليه ما فاته مرفوعاً عليه صورة (ك) . وهو يعنى أن يميز ما له مما لسابقه بهذا الحرف الذى وضعه فوق الذى زاده هو .

والذى فعله هنا فعله فى مواضع مختلفة حين نقل عن كتاب بعينه فعله مع كتب أخرى وهو ينقل عن أصحابها فيقول : قال ابن فضل الله ، وقال صاحب المرآة ، وقال التيفاشى ، وقال المقريزى ، وقال ابن المتوج ،وقال ابن عبد الحكم: وذكر الحافظ فى كتاب الأمصار .

ولكن إذا شاع المنقول عدل عن ذكر اسم المنقول عنه .

فهو حين يذكر من كان بمصر من الشعراء والأدباء ناقلا عن أكثر من مرجع يمضى فى ذكر التراجم دون أن يعزو نقله ، ولكنك على الرغم من هذا نراه خلال الترجمة يصرح باسم المنقول عنه حين يورد رأياً له . وإليك هذا الفصل عن :

ذكر من كان بمصر من المؤرخين

سعيد بن عفير — عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم — محمد بن الربيع الجيزى ، مروا — عمارة ابن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسى ، صاحب التاريخ على السنين . قال ابن كثير : ولد بمصر وحدث عن أبى صالح كاتب الليث وغيره ، مات سنة تسع

وثمانين ومائتين — الطحاوى ، مر — الحسن ابن القاسم ابن جعفر بن دحية أبو على الدمشقى ، من أبناء المحدثين. قال ابن كثير ، كان إخباريا ، له فى ذلك مصنفات . حدث عن العباس بن الوليد السدوسى وغيره . مات بمصر سنة سبع وعشرين وثلثمائة وقد أناف على الثمانين — أبو سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر ، مر فى الحفاظ — أبو عمر الكندى محمد بن يوسف بن يعقوب صنف فضائل مصر ، وكتاب قضاة مصر ، كان فى زمن كافور بن زولاق — أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين المصرى المؤرخ ، صنف كتاباً فى فضائل مصر ، وذيلا على قضاة مصر للكندى . مات فى ذى القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة عن إحدى وثمانين سنة — المسبحى الأمير المختار عز الملك محمد بن عبدالله بن أحمد الحرانى ، صاحب التصانيف . قال فى العبر : كان رافضيا ، صنف تاريخ مصر ، وكتاباً فى النجوم ، وكتاب التلويح والتصريح من الشعر ، وكتاب أنواع الجماع . مات سنة عشرين وأربعمائة عن أربع وخمسين سنة — القضاعى ، مر فى الشافعية — القفطى الوزير جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم الشيبانى ، وزير حلب ، صاحب تاريخ النحاة ، وتاريخ اليمن ، وتاريخ مصر ، وتاريخ بنى بويه ، وتاريخ بنى سلجوق . ولد بقفط سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ومات بحلب سنة ست وأربعين وستمائة — محمد بن عبد العزيز الادريسى الشريف العلوى ، كان من فضلاء المحدثين وأعيانهم ، سمع الكثير وألف المفيد فى أخبار الصعيد ، ولد فى رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وتوفى بالقاهرة فى صفر سنة تسع وأربعين وستمائة — ولده : جعفر ، ولد بالقاهرة فى شوال سنة إحدى عشرة وستمائة ، وسمع من ابن الجميزى

وابن المقير ، روى عنه الدمياطى وأبو حيان ، وكان نسابة الشرفاء بمصر أديباً ، صنف تاريخاً للقاهرة ، ومات سنة ست وسبعين وستمائة — ابن خلكان ، قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الإربلى الشافعى ، صاحب وفيات الأعيان ، ولد سنة ستمائة ، وأجاز له المؤيد الطوسى ، وتفقه بابن يونس وابن شداد ، ولقى كبار العلماء ، وسكن مصر مدة وناب فى القضاء بها ، ثم ولى قضاء الشام عشر سنين ، ثم عزل فأقام بمصر سبع سنين ، ثم رد إلى قضاء الشام . قال فى العبر : كان سريا ذكيا اخباريا عارفاً بأيام الناس ، مات فى رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة — أبو الحسن على بن موسى بن عبدالملك ابن سعيد الغرناطى الأديب الاخبارى الشهير ، صاحب التصانيف الأدبية ، ولد بغرناطة سنة عشر وستمائة ، وأخذ عن الشلوبين وغيره ، وجال فى الأقطار ودخل مصر والشام وبغداد ، وألف : المغرب فى حلى المغرب . والمشرق فى حلى المشرق ، والطالع السعيد فى تاريخ بلده ، مات بتونس سنة خمس وثمانين وستمائة — الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار ، صاحب التاريخ المسمى بزبدة الفكرة ، فى أحد عشر مجلداً ، والتفسير . مات سنة خمس وعشرين وسبعمائة — ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيرى ، أحد العدول بمصر ، ولد بها فى ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة وسمع وحدث ، وألف تاريخ مصر ، سماه إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل . روى عنه البدر بن جماعة . مات بمصر فى المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة — الكمال الادفوى أبو الفضل جعفر بن ثعلب ابن جعفر ، كان فاضلا أديباً شاعراً ، صنف الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد ، والامتاع فى أحكام السماع ،

ومات بالطاعون بالقاهرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد قارب التسعين — النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكرى المؤرخ صاحب التاريخ المشهور، مات فى رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة — القطب الحلبى، مر فى الحفاظ — ابن الفرات ناصرالدين محمد بن عبد الرحيم بن على بن الحسن المصرى الحنفى، كان لهجاً بالتاريخ فكتب تاريخاً كبيراً جد ، وسمع من أبى بكر بن الصناج وأجاز له أبو الحسن البندنجى وتفرد بهما . مات ليلة عيد الفطر سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، وله اثنتان وسبعون سنة — صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق ، موُرخ بالديار المصرية ، جمع تاريخاً على الحوادث وتاريخاً على التراجم وطبقات الحنفية . مات فى ذى الحجة سنة تسعين وسبعمائة ، وقد جاوز الثمانين — شهاب الدين الأوحدى أحمد بن عبدالله ابن الحسن بن طوغان ، ولد سنة إحدى وستين وسبعمائة ، وكان لهجاً بالتاريخ ، ألف كتاباً كبيراً فى خطط مصر والقاهرة ، وكان مقرئاً أديباً ، تلا على التقى البغدادى ، مات فى جمادى الأولى سنة إحدى عشر وثمانمائة — المقريزى تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد مؤرخ الديار المصرية ، ولد سنة تسع وستين وسبعمائة واشتغل فى الفنون وخالط الأكابر وولى حسبة القاهرة ونظم ونثر وألف كتباً كثيرة ، منها : درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وعقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، واتعاظ الحلفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء ، والسلوك بمعرفة دول الملوك ، والتاريخ الكبير ، وغير ذلك ، مات سنة أربعين وثمانمائة — ابن حجر ، مر فى الحفاظ — شيخنا العز الحنبلى ، مر فى الحنابلة .

ثم إليك فصلا آخر فى « ذكر ما قيل فى النيل » نختصر منه :

قال التيفاشى : وقد ذكرت العرب النيل فى أشعارها وضربت به الأمثال . قال قيس بن معد يكرب فيما أورده الجاحظ فى كتاب الأمصار :

ما النيل أصبح زاخراً بحدوده
وجرت له ريح الصبا فجرى بها

ابن نباتة :

زادت أصابع نيلنا
وطغت وطافت فى البلاد
وأتت بكل مسرة
ما ذى أصابع ذى أيادى

ناصر الدين حسن بن النقيب :

كأن النيل ذو فهم ولب
لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى عند حاجتهم إليه
ويمضى حين يستغنون عنه

الصلاح الصفدى :

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها
عجائبا ما رآها الناس فى جيل
تسودّ فى عينى الدنيا فلم أرها
تبيض إلا إذا ما كنت فى النيل

أيدمر التركى :

انظر إلى النيل السعيد المقبل
والماء فى أنهاره كالسلسل
أضحى يريك الحسن بين مورد
من لونه حيناً وبين مصندل
ويمر فى قيد الرياح مسلسلا
يا حسنه من مطلق ومسلسل

وترى زوارقه على أمــواجه
منسوبة للنــاظر المتــأمل
مثل العقارب فوق حيات غدت
يسعى بها فى عدوها ما يأتلى
وكأنمــا أسماكه من فضــة
من جمد ذائب مائه من أول

ومن كلام القاضى الفاضل فى وصف النيل المصرى : الذى يكسو الفضاء ثوباً فضياً ، ويدلى من الأرض ماؤه سراجاً من النور مضياً ، ويتدافع تياره دافعاً فى صدر الجدب بيد الخصب ، وترضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالوصف الأبى .

وبعد ما ساق كلاماً فى هذا انتقل بحدثنا عن ذكر البشارة بوفاء النيل ، فقال :

جرت العادة كل سنة إذا أوفى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد وهذه عادة قديمة ، إذ لم يزل كتاب الإنشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة . فمن إنشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين بن أيوب :

نعم الله — سبحانه وتعالى — من أضوئها بزوغاً ، وأفضاها سبوغاً ، وأصفاها ينبوعاً ، وأمدها بحر مواهب ، وأضمنها حسن عواقب ، النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويفيضها مده وجزره ، ويروى النبات غمره ، ويحيى مطلعه الحيوان ، وثمرات الأرض صنوان وغير صنوان .

وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب ، وأمن يوم بشراه من كان خائفاً يترقب . ورأينا الإبانة عن لطائف الله التى حققت الظنون ، ووفت بالرزق المضمون ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

وقد أعلمناك لتستوفى حقه من الإذاعة ، وتبعده من الإضاعة . وتتصرف على ما نصرفك من الطاعة . وتشهر ماء ورده البشير من البشرى بابانته ، وتمده بايصال رسمه مهنأ على عادته .

وهذا فصل له آخر فى ذكر أمهات المدارس نختصر منه شيئاً :

المدرسة الكاملية

وهى دار الحديث . وليس بمصر دار حديث غيرها وغير دار الحديث التى بالشيخونية .

قال المقريزى : وهى ثانى دار عملت للحديث فان أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار ، بناها الملك الكامل وكملت عمارتها فى سنة إحدى وستمائة وجعل شيخها أبا الخطاب عمر بن دحية . ثم وليها بعده أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية ، ثم وليها الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، ثم وليها شرف الدين بن أبى الخطاب بن دحية ، ثم وليها بعده المحدث محيى الدين بن سراقة . ثم وليها تاج الدين بن القسطلانى المالكى ، ثم وليها النجيب عبد اللطيف الحرانى. ثم وليها القطب القسطلانى الشافعى . ثم وليها ابن دقيق العيد . ثم وليها أبو عمرو بن سيد الناس والد الحافظ فتح الدين، فانتزعها منه البدر بن جماعة . ثم وليها عماد الدين محمد ابن على بن حرمى الدمياطى ومات سنة تسع وأربعين وسبعمائة . ووليها الحافظ زين الدين العراقى . ثم لما أن ولى قضاء المدينة سنة ثمان وثمانين وسبعمائة استقر فيها الشيخ سراج الدين بن الملقن .

وعلى هذا النحو ساق السيوطى أكثر من مدرسة . والغريب فى كل ما ذكره من هذا أنه يقف عند حد

المروى ولا يزيد عليه ، مع أن الخيط ممتد : ويا بعد ما بين سنة (٧٨٨هـ) التى انتهى إليها الحديث عن المدرسة الكاملية وبين وفاة السيوطى التى كانت سنة (٩١١ هـ) :

وإليك ما كتبه السيوطى عن الروضة .

يقول : ذكر جزيرة مصر ، وهى المسماة الآن بالروضة :

قال المقريزى : اعلم أن الروضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر وبين مدينة الجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ثم قيل لها : جزيرة الحصن : وعرفت الروضة من زمن الأفضل ابن أمير الجيوش إلى اليوم . انتهى :

وقال ابن المتوج فى كتابه « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » : إنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها . وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن فى غيرها :

ولما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدة فلما طال حصارها وهرب الروم منها ضرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها وكانت مستديرة عليها :

واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاثمائة وستين ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل :

وقال المقريزى : اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الإسلام ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر فان العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص إلى أرض مصر وحاصروا الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر حتى فتحه الله عنوة على المسلمين كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر لم يبلغنى إلى الآن متى حدثت . وأما غيرها من الجزائر كلها فقد تجددت بعد فتح مصر . وإلى هذه الجزيرة التجأ المقوقس لما فتح الله على المسلمين النصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط :

وقال ابن عبد الحكم : كان بالجزيرة فى أيام عبد الملك بن مروان أمير مصر خمسمائة فاعل عدة .

وقال الكندى : بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع وخمسين . والصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية . وأول صناعة عملت بأرض مصر التى بنيت بالروضة فى سنة أربع وخمسين من الهجرة فاستمرت إلى أيام الإخشيد فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر وجعل موضع الصناعة التى بالروضة بستاناً سماه المختار :

وقال القضاعى : حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين ليحرز فيه ضريحه وماله . وكان سبب ذلك سير موسى بن بغا من العراق والياً على مصر وجميع أعمال ابن طولون ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله . فلما بلغ أحمد بن طولون سيره تأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ إلا من جهة النيل فبنى الحصن بالجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ليكون معقلا لحريمه وذخائره واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العشاريات وغيرها . فلما بلغ موسى بن بغا بالرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته . ثم لم يلبث موسى أن مات وكفى ابن طولون أمره :

. . . وما زال حصن الجزيرة هذا عامراً أيام بنى طولون حتى أخذه النيل شيئاً فشيئاً وقد بقيت منه بقايا متقطعة إلى الآن .

إلى أن يقول :

قال المقريزى : وعادت الروضة بعد هدم القلعة منها متنزهاً تشتمل على دور كثيرة وبساتين عدة وجوامع تقام بها الجمعات والأعياد .

ثم يورد شعراً لابن مماتى والحداد . وكما فعل السيوطى عند الكلام على المدارس ، ينتهى هناعند ما انتهى إليه المقريزى لا يعدوه ، فلم يمض فى الحديث عن الروضة إلى أيامه .

ونحن إذا تتبعنا الكتاب نحس كم عانى السيوطى فى استصفاء مراجعه ، وكم عانى فى تبويب ما استصفى وتنسيقه ، ثم نحس أمانته فى النقل التى ألزمته أن يعزو كل منقول إلى صاحبه ، يدعه يتحدث ، وما يعيب السيوطى أن يكون ناقلا ، فهذه أمور لم يشهدها فلا عليه من أن يعزوها إلى من شهدها . وقد يقال : إنه لم يقف وقفات مع ما روى ونقل يعقب ، وهذه لا تقوم دعوى ، لأن السيوطى كان فى أكثر ما أورد يورد تراجم وأخباراً وما يملك المورد لمثل هذا وذاك أن يعقب .

وقد طبع الكتاب طبعتين أولاهما سنة ١٢٩٩ هـ ، والثانية سنة ١٣٢١ هـ .

وهو لا زال فى حاجة إلى جهد جديد ليخرج فى صورة سليمة مقروءة ولا تزال منه خطيات تعين على هذا .

وما إخال قارئاً يحب مصر ويحب أن يقرأ عن مصر حديثاً يجلو حياة الشعب العلمية والأدبية من نوع هذا الحديث الذى جمعه السيوطى ، يستغنى عن كتاب السيوطى « حسن المحاضرة » .

